

إشكالية التجارة الصامتة لذهب السودان الغربي: قراءة نقدية

أ.عمرو منصور

جامعة دمياط، مصر

amrmansour2003@gmail.com

تاريخ الوصول : 2019/05/25 القبول: 2019/06/19 النشر على الخط:

Received : Accepted : Published online :

الملخص:

مثل الذهب الوارد من منطقة السودان الغربي الرثة لاقتصادية لدول شمال أفريقيا وغرب البحر المتوسط في العصر الإسلامي فثراء هذه الدول وقوة وضعف عملاتها الذهبية ظل مرتبطاً بالذهب السوداني الذي تجاوزت تدعياته الاقتصادية إلى مستوى العلاقات السياسية بين هذه الدول، ورغم هذه الأهمية الكبيرة للذهب السوداني إلا أن كيفية الحصول عليه ظلت لغزا غامضا طوال قرون واتسمت بطابع أسطوري تناقلته المصادر العربية وارتضته المراجع الحديثة.

ومن هنا وجد الباحث نفسه مدفوعا للنظر في هذه الروايات المختلفة، سعياً لمحاولة الوصول لصورة واضحة عن حقيقة التجارة الصامتة وتفنيد أسس قيامها، ومدى اتساقها مع المعطيات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لمنطقة السودان الغربي.

الكلمات المفتاحية:

الذهب؛ السودان الغربي؛ التجارة الصامتة؛ شمال إفريقيا.

Abstract

The gold imported from the western Sudan region is the economic lung of the countries of North Africa and the Western Mediterranean in the Islamic era. The richness of these countries and the strength and weakness of their gold coins have been linked to Sudanese

gold, which has exceeded its economic commitments to the level of political relations between these countries.

In spite of the great importance of the Sudanese gold, the way of getting it was a mystery along with all centuries and was characterized by a mythical nature transmitted by the Arab sources and supported by modern references.

Hence, the researcher found himself motivated to look at these different narratives in order to reach a clear picture of the fact of silent trade and refute the foundations of its establishment, and its consistency with the economic, social and political data of the western Sudan.

المقدمة :

تعدّ عملية التبادل بين التجار من مسلمي الشمال الأفريقي والمحليين ووكلائهم من جانب، ومنتجي الذهب في السودان الغربي من جانب أخرى العمود الفقري، وأهم عُرى تجارة الذهب لكن سيطر على بعض المصادر العربية والأوروبية، وجل الكتابات العربية والأجنبية الحديثة صبغة أسطورية فيما يتعلق بآلية إتمام عملية التبادل فيما سعى بالتجارة الصامتة، حتى صارت تقريباً إحدى المسلمات المتعلقة بمنظومة تجارة الذهب، فعلى سبيل المثال أقر باستخدامها عدد من المؤرخين⁽¹⁾ لكن يعد من غير المقبول التمسك بفكرة التجارة الصامتة في ظل ما تزخر به المصادر العربية في

(1)- حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، 1957م، ص 56؛ مورييس لومبار، الإسلام في مجده الأول من القرن 2 إلى القرن 5 هـ (8-11م) ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، الطبعة الثالثة، منشورات دار الأفق الجديدة، المغرب، 1990م، ص 336؛ ك. مادهو. بانيكار، الوثنية والإسلام تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب إفريقيا، ترجمة وتعليق وتحقيق أحمد فؤاد بلبع، الطبعة الثانية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998م، ص 391؛ أحمد إلياس حسين: العلاقات بين مملكة غانة والمغرب العربي فيما بين القرنين الثاني والخامس الهجريين، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، 1982م، ص 126؛ بيتر. ل. بيرنشتاين، سطوة الذهب .. قصة استبداده بالقلوب والعقول، تعريب مها حسن بحبوح، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 2002م، ص 115، 117

ثناياها من إشارات تدحض هذه الفكرة، وسنعرض أهم ما أورده المصادر والمراجع عن التجارة الصامتة، ثم نقيمها.

يذكر المسعودي⁽¹⁾ عن مملكة غانة "وملكها أيضًا عظيم الشأن ويتصل ببلاد معادن الذهب، وبها منهم أمة عظيمة، ولهم خط لا يجاوزه من صدر إليهم، فإذا وصلوا إلى ذلك الخط، جعلوا الأمتعة والأكسية عليه وانصرفوا، فيأتوا أولئك السودان ومعهم الذهب، فيتركونه عند الأمتعة وينصرفون، ويأتي أصحاب الأمتعة، فإن أرضاهم وإلا عادوا ورجعوا، فيعود السودان فيزيدونهم حتى تتم المبايعة .. وربما رجع التجار بعد زوالهم مختفين، فوضعوا النيران في الأرض فيسيل الذهب فيسرقه التجار ثم يهربون؛ لأن الأرض كلها ذهب عندهم ومعدن ظاهر، وربما فطنوا بهم فيخرجون في آثارهم وإن أدركوهم قتلوهم".

من جانبه يقول ياقوت الحموي⁽²⁾: "وساروا (أي التجار) مجدين بعناء شديد حتى يقدموا الموضع الذي يحجز بينهم وبين أصحاب التبر، فإذا وصلوا ضربوا طبولاً معهم عظيمة تسمع من الأفق الذي يسامت هذا الصنف من السودان، ويقال: إنهم في مكامن وأسراب تحت الأرض عراة لا يعرفون سترًا كاليهائم مع أن هؤلاء القوم لا يدعون تاجرًا يراهم أبدًا وإنما هكذا تنقل صفاتهم، فإذا علم التجار أنهم قد سمعوا الطبل أخرجوا ما صحبهم من البضائع المذكورة فوضع كل تاجر ما يخصه من ذلك، كل صنف على جهة، ويذهبون عن الموضع مرحلة، فيأتي السودان ومعهم التبر فيضعون إلى جانب كل صنف منها مقداراً من التبر وينصرفون، ثم يأتي التجار بعضهم فيأخذ كل واحد ما وجد بجانب بضاعته من التبر، ويتركون البضائع وينصرفون بعد أن يضربوا طبولهم .. وبين هذه البلاد وسجل مائة ثلاثة أشهر".

(1)- أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، دار الأندلس للطباعة والنشر

والتوزيع، بيروت، 1996، ص 88 - 89

(2)- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977م، ج2، ص 12

وقال ابن الصايغ : "وحدثت أن من أمم السودان الداخلة من لا يظهر لهم، بل إذا جاء التجار بالملح وضعوه ثم غابوا، فيجئ السودان فيضعون إزاءه الذهب، فإذا أخذ التجار الذهب، أخذ السودان الملح"⁽¹⁾.

ويذكر إبراهيم طرخان⁽²⁾ رواية مشابهة كثيرًا لرواية ياقوت الحموي، لكنه يضيف عليها تحديد الأماكن، حيث إن تجار الذهب المغاربة كانوا يذهبون بسلعهم المختلفة إلى كومي صالح، ليلتقوا بالوكلاء والوسطاء الغانيين، ويسيروا جميعًا نحو عشرين يومًا إلى أعالي السنغال للقاء منتجي الذهب، كما أنه حاول التجار مرة أن يعرفوا شيئًا عن منابع الذهب، فقبضوا على أحد الزنوج، وعذبوه حتى مات دون أن يصرح بشيء، ونتيجة لهذا الحادث امتنع الزنوج الوطنيون من التعامل مع التجار لمدة ثلاث سنوات، حتى اضطروا لاستئناف التعامل بسبب حاجتهم الشديدة للملح بصفة خاصة.

كما يقدم اعتمادًا على وصف التجارة الصامتة عند المسعودي مبررات لها بالقول: إن مصطلح التجارة الصامتة يعني- على قول المسعودي -التعامل والمساومة أو المبايعة بين أقوام لا يعرف أحدهم لغة الآخر، أو يحرص طرف منهم على الحفاظ على سر منابع ثروته حتى لا تنهب أو يتم السطو عليها، أو لأن قومًا من السذج يتعاملون مع قوم أدت حوادث التعامل معهم لانعدام ثقتهم فيهم⁽³⁾.

من جانبه، يشير بانيكار⁽⁴⁾ إلى أن لجوء منتجي الذهب للتجارة الصامتة كان من أجل إخفاء مناطق إنتاج الذهب عن تجار الشمال.

بعد سرد الروايات المتعلقة بالتجارة الصامتة يمكن وفقها ملاحظة الآتي:

⁽¹⁾ - العمري(شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى)، مسالك الأبصار مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج4، تحقيق محمد عبد القادر وعصام مصطفى هزاع ويوسف أحمد بن ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات، 2001، ص 76.

⁽²⁾ - إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970 م ، ص 70 – 71.

⁽³⁾ - طرخان، المرجع نفسه، ص 70.

⁽⁴⁾ - المرجع نفسه، ص 391.

1- إن سبب لجوء منتجي الذهب لهذه الطريقة للتبادل مع التجار القادمين من شمال الصحراء هو حرصهم على إخفاء مصادر إنتاج الذهب عن هؤلاء التجار، وإذا كان هذا التصور قد شاع عن التجارة في الذهب المنتج في السودان الغربي، فإنه يجب أن نطرحه أيضًا لكي تكتمل أركان القضية على الذهب المنتج في منطقة الغابات خارج حدود السودان الغربي، والذي كان يجلبه التجار الماندي للسودان الغربي، كما تبين الروايات المذكورة أن تجار الذهب من القادمين من الشمال لم يصلوا لأي منطقة من مناطق إنتاج الذهب، ولم يحتكوا بالمنتجين على وجه الإطلاق.

2- إن عملية تجارة الذهب كانت عملية بدائية جدًا تتم بين التجار ووكلائهم والأفراد المنتجين للذهب فقط دون أي تدخل أو تنظيم حكومي.

3- عدم وجود لغة تفاهم مشتركة بين المنتجين والتجار القادمين من الشمال .

سنحاول أن نناقش العناصر السابقة من خلال استعراض مقارن مع ما ورد في المصادر.

العنصر الأول:

أشارت المصادر إلى أن لجوء السودانيين للتجارة الصامتة هو رغبتهم في عدم كشف مناطق إنتاج الذهب أمام هؤلاء التجار إلا أنه يمكن الرد على ذلك من خلال:

أولاً: من المؤكد أن البربر تعرفوا على مناطق إنتاج الذهب، وشاهدوا استخراجهم من خلال تجارته التي كانت قائمة بينهم وبين ومملكة غانة قبل تأسيس مدينة سجلماسة "باب التبر" 140هـ / 757م، لاسيما مع وجود أسرة بربرية حكمت غانة زهاء ثمانية قرون، وسقطت مطلع القرن التاسع الميلادي.

كما منحت هذه العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الفرصة لحدوث تواصل وقبول مشترك بين البربر والسوننك العنصر السكاني الأصلي لغانة. انعكس في تيسير أن يكون البربر وزراء وتراجمة وأصحاب بيت مال ملك غانة، وما أثبتته المصادر من أن تجارة الذهب عند تناول ظهورها

منذ عام 140هـ / 757م، لم يتم الحديث عن أية عقبات واجهت التجار البربر حتى بعد سقوط الأسرة البربرية الحاكمة في غانة⁽¹⁾.

من جهة أخرى، بافتراض صحة رواية المسعودي⁽²⁾ عن محاولة التجار سرقة الذهب بتسييله بعد إتمام عملية التبادل مع منتجه، كما يتحدث عن أن الذهب ظاهر في هذه الأراضي. فكيف عرف التجار أن الأرض الموجودين عليها يمكن الحصول منها على الذهب بوضع النيران، وأنه ذهب ظاهر إن لم يكونوا عرفوا فعلاً مناطق إنتاج الذهب؟!

وكيف يقدم ابن حوقل والبكري والإدريسي هذا التوضيح الشديد لمناطق إنتاج الذهب في السودان الغربي، والتحولت في أهمية هذه المناطق، وبيان أفضلية إحداها على الأخريات في جودة الذهب المنتج، وأيضاً خصائص سكانها، معتمدين في رواياتهم على شهادات التجار، ورغم ذلك لم يذكروا شيئاً عن التجارة الصامتة. فيتحدث ابن حوقل⁽³⁾ عن شدة ثراء ملوك غانة بفضل مخزونهم من التبر المستخرج من أراضيها، وأن كوغة تنتج الذهب لكن ليس بحجم إنتاج غانة. في حين يقدم البكري⁽⁴⁾ توضيحات تفصيلية ودقيقة عن كافة مظاهر الحياة في معظم مناطق إنتاج الذهب في السودان الغربي نقلاً عن شهود عيان تجار وفقهاء زاروا المنطقة فيذكر منهم "وحدث أبو عبد الله المكي أنه رأي ... " كما ينقل " ... وأخبر الفقيه عبد الملك ... " وجماعة من المسلمين الثقات. أي أن التجار كانوا موجودين وسط المنتجين أو على مسافة قريبة جداً منهم وعلى علم بمناطق الاستخراج. كما أن ابن بطوطة الذي زار سلطنة مالي، والذي رغم ما يلاحظ في رحلته من انتقاده لأفعال السودانيين لكنه لم يذكر شيئاً عن التجارة الصامتة، وكان قادراً لو كانت موجودة في عهده أو في زمان أقدم أن يذكرها من باب التندر على السودانيين.

ثانياً: أليس من المستغرب أن يكون ملك غانة تراجمته وأكثر وزرائه وصاحب بيت ماله من المسلمين⁽⁵⁾، بربر كانوا أم عرب، والذين كان بعضهم من التجار الذين وصلوا لهذه المنزلة الرفيعة بعد

(1) - البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز)، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوقن، أندري فيري، دار الغرب الإسلامي، 1992، ج2 ص 871-872.

(2) - المسعودي: المصدر السابق، ص 88 - 89.

(3) - أبو القاسم بن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، 1992م، ص 98.

(4) - البكري، المصدر السابق، ج2، ص 875 - 876، 879.

(5) - البكري، المصدر السابق، ج2، ص 872.

سنوات من التعامل البناء، وتعزيز الثقة بينهم وبين النظام الملكي في غانة، وأصبحوا على معرفة بأدق أسرار المملكة، ورغم ذلك لا يعرفون مناطق استخراج الذهب الذي يمثل مصدر الثراء الرئيس للمملكة التي هم جزء من نظامها الحاكم. كما أنه ما الداعي لممارسة السودانيين التجارة الصامتة والخشية من تجار تتعامل معهم تجاريًا الأنظمة الحاكمة في بلدانهم وصار بعضهم جزءًا من هذه الأنظمة؟

ثالثًا: عرض البكري والإدرسي استنادًا لروايات التجار لوصف تفصيلي لمناطق إنتاج الذهب، وتحديد موقعها، وكيفية الوصول إليها، وتحديد المسافات بينها وبين المناطق المجاورة، ومنها مناطق بعيدة عن العاصمة، يؤكد أن هؤلاء التجار وصلوا لكافة مناطق إنتاج الذهب تقريبًا، ولم يكن عليهم أي قيود في تحركاتهم داخل حدود ممالك السودان الغربي.

وتعد قصة الرجل العربي الذي تعرض لموقف مع امرأة في بلدة سامه التابعة لمملكة غانة، خير شاهد على حرية التنقل التي كانت ممنوحة للتجار، فمن نقل الحادثة للبكري كان تاجرًا يبدو أنه عربي يعرف باسم أبو عبد الله المكي، والرجل الذي تعرض للموقف كان بصحبة ترجمان، والموقف دار خارج العاصمة⁽¹⁾. كما يذكر الإدرسي بوضوح لعملية استخراج الذهب من ونقارة، وأن الذهب المستخرج كان يباع مباشرة إلى التجار من وارجلان والمغرب الأقصى⁽²⁾ أي أن التجار كانوا موجودين وسط المنتجين، أو على مسافة قريبة جدًا منهم، وعلى علم بمناطق الاستخراج.

كما أن انتشار الإسلام بكثافة في مراكز إنتاج الذهب تحديدًا -بما فيها البعيدة - دون المناطق المحيطة بها كيف يمكن له أن يحدث إلا بتواجد مستمر للتجار والدعاة الشماليين وسط منتجي الذهب، وهذا التواجد يعنى مشاهدة استخراج الذهب من هذه المناطق.

رابعًا: تقديم الرحالة الأوروبيين الذين اعتمدوا في رواياتهم على عناصر بربرية وعربية للتجارة الصامتة كنظام وحيد لتجارة الذهب بين تجار الشمال الأفريقي ومنتجيه من السودانيين⁽³⁾، وتسويق مبررات استخدام السودانيين لها كنظام تجاري والاقتناع بعد معرفة تجار الشمال لمناطق

(1)-البكري، المصدر السابق، ج2، ص 876

(2)-الإدرسي (أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الله)، نزهة نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، ج1، مكتبة

الثقافة الدينية، القاهرة، 2002م، ص24

(3) -P. F. de MoraesFarias: Silent Trade: Myth and Historical Evidence,History in Africa, Cambridge University Press,1974, Vol. 1, p. 13

إنتاج الذهب يبدو أمرًا غير واقعيًا، فكما تبين أن التجار البربر والعرب كان لهم تواجد واضح في مناطق إنتاج الذهب قبل الانطلاقة الكبرى في العلاقات بين شمال الصحراء وجنوبها بعد قيام دولة المرابطين، حيث وصل العرب والبربر قمة علاقاتهم مع السودانين في عهد سلطنتي مالي وصنغي وانتشروا في كافة أرجائهما.

العنصر الثاني:

أولاً: تقدم التجارة الصامتة صورة هزلية وبدائية جدًا لعملية تجارة الذهب، وإنها كانت محصورة بين تجار قادمين من الشمال ومنتجي الذهب من الأفراد العاديين، وأن استخراج الذهب وبيعه كان بلا أي ضوابط أو تنظيم حكومي، وهو ما يتناقض مع ما تذكره المصادر من أن استخراج وتجارة الذهب خضعا لإشراف حكومي دقيق ومنظم، وهو ما سنتعرض له بالتفصيل بعد قليل لكننا سنسرد بعض الأدلة سريعاً.

يتحدث ابن حوقل⁽¹⁾ عن شدة ثراء ملوك غانة بفضل مخزونهم من التبر المستخرج من أراضيها وتمدنا رواية البكري⁽²⁾ بتفاصيل هذا النظام المحكم في مملكة غانة " ...و إذا وجد في جميع معادن بلاده الندر (أي السبيكة) من الذهب استصفاه الملك وإنما يترك فيها للناس هذا التبر الدقيق، ولولا ذلك لكثر الذهب بأيدي الناس حتى يهون .." وبذلك لم يكن بيع كميات الذهب بائاً مفتوحاً على مصراعيه كما يظهر في التجارة الصامتة. وكانت هناك عملية تسعيرية واضحة لأهم سلعة تبادل بالذهب وهي الملح. كما تتعارض أيضاً التجارة الصامتة مع وضع مملكة غانة نظاماً جمركياً ثابتاً فرضت بموجبه مكوساً على السلع المبادلة بالذهب.

ثانياً : ألم تكن الأسر الحاكمة في مملكة غانة وممالك حوض السنغال ومملكة صنغي بحاجة للحصول على احتياجاتهم من سلع الشمال المهمة التي لا غنى عنها بالنسبة إليهم، وعلى رأسها الملح. فهل كان هؤلاء الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة يختبئون في الحفر، ويمارسون التجارة الصامتة للحصول على هذه السلع مع أشخاص بعضهم هم وزراءهم وتراجمتهم وأصحاب بيوت أموالهم؟! هذا أمر غير منطقي . بل إن ما عثر عليه خبراء الآثار من صنج لوزن الذهب في موقعي كومي صالح

(1) - ابن حوقل، المصدر السابق ، ص 98.

(2) - البكري، المصدر السابق، ج2، ص 874.

وجاء⁽¹⁾ تنهي تمامًا أسطورية التجارة الصامتة التي تقدم صورة بدائية وهزلية للتجارة في الذهب بين المنتجين والمستوردين، بينما تؤكد هذه الموازين أن تجارة الذهب كانت غاية في التنظيم، وجرى خلالها احتكاك مباشر بين الجانبين.

العنصر الثالث:

أولاً: يمكن الرد على الرأي المفسر للتجارة الصامتة بأنها لعدم وجود لغة تفاهم مشتركة بين المنتجين والتجار القادمين من الشمال، بالاستعانة بحديث البكري⁽²⁾ عن ملك غانة بأن تراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه. كما واجه رجل من العرب موقفًا مع إحدى النساء في بلدة سامه التابعة للمملكة غانة واستعان الرجل العربي بترجمان معه لفهم كلام المرأة⁽³⁾ فوجود تراجمة للملك وترجمان مع الرجل العربي يعني توفر أشخاص يتقنون لغة المملكة، وكذلك لغة الوافدين على الدولة، والتي هي العربية. كما أن لومبار⁽⁴⁾ أحد مؤيدي التجارة الصامتة يناقض نفسه ويشير لدخول اللغة العربية كلغة تجارة إلى السودان الغربي عبر التجار البربر، وأن بعض ألقاظها تسربت للغة أزر (Azer) وهي لغة تجار الذهب على السواحل الغربية للسودان الغربي.

كما أن هناك إشارات كثيرة عن انتشار الإسلام في السودان الغربي في غانة والتكرور ومالي وصنغي قبل بروز أثر الدور المرباطي في تدعيم الوجود الإسلامي في السودان الغربي ومن أهمها:

الحديث عن مملكة كوغة قبلة تجار الذهب "وبين غانة ومدينة كوغة خمس عشرة مرحلة... وأهلها مسلمون وحواليها المشركون وأكثر ما يتجهز إليها بالملح والودع والنحاس ... وهي أكثر بلاد السودان ذهبًا"⁽⁵⁾. ويمكن أن نستخلص من وصف هذه المدينة البعيدة عن عاصمة غانة كومبي صالح ما يأتي:

(1)- جان دفيس: التجارة التجارية والطرق التجارية في غرب أفريقيا، تاريخ أفريقيا العام، الطبعة الثانية،

اليونسكو، باريس، مجلد 3، 1997م، ص 437، 477.

(2)- البكري، المصدر السابق، ج2، ص 872.

(3)- البكري، المصدر السابق، ج2، ص 876.

(4)-لومبار، المرجع نفسه، ص147.

(5)- البكري، المصدر السابق، ج2، 877.

وجود أفراد يتقنون لغة أهل المدينة، التي هي لغة أهل غانة، وهؤلاء الأفراد إما عرب أو بربر استطاعوا بفضل اتقانهم اللغة المحلية نشر الإسلام بين أهالي المدينة، أو على الأقل انتشر الإسلام على يد أفراد من السوننك والونقارة الذين عملوا كوكلاء محليين لتجار الشمال، واستطاعوا بفضل معرفتهم باللغة العربية أن يقوموا بدورهم التجاري ويتعرفوا على الإسلام ويعتنقوه وينشروه بين سكان المدن المنتجة للذهب.

كما أن أفضل الذهب في مملكة غانة ما كان بمدينة غياروا التي يكثر فيها المسلمون⁽¹⁾، وذكر ملك مالي الذي أسلم على يد ضيفه المسلم الذي كان " يقرأ القرآن ويعلم السنة " في عاصمة مملكته⁽²⁾، وملك التكرور المسلم وارجابي بن رابيس المتوفي 432 هـ / 1040 م ، الذي اعتنق الإسلام وحمل أهل مملكته عليه⁽³⁾، وملك صنغي الذي اعتنق الإسلام ويزعم أنه يولي من قبل أمير المؤمنين⁽⁴⁾.

إذن لدينا تراجمة ووزراء وأصحاب بيوت مال من المسلمين سواء كان هؤلاء المسئولين عرب أم بربر، أو على أبعد احتمال أن هؤلاء المسئولين من أهل غانة، ومجال لغوي واسع يؤدي مهام مختلفة من بينها نشر الإسلام في مراكز إنتاج الذهب في كافة أرجاء السودان الغربي، وهي مسألة شديدة التعقيد لغويًا أكثر من المسائل التجارية، وبذلك كيف يكون لدى التجار إمكانيات التواصل اللغوي المرن الذي نشروا الإسلام من خلاله داخل مراكز إنتاج الذهب، وعقد المباحثات التجارية والسياسية ودفع المكوس لمسئولي الجمارك في مملكة غانة، ويصر التجار على الصمت أثناء التجارة مع منتجي الذهب الذين يتحدثون بلغة المملكة وينشروا الإسلام بين أظهرهم، فأثناء نشر التجار الإسلام يقولون لمنتجي الذهب الآن سنتوقف عن الكلام من أجل التجارة الصامتة ثم بعد أن ننهي التجارة نعود للكلام من جديد لننشر بينكم الإسلام!!

وكم من السنوات كانت لازمة لنشر الإسلام في أي منطقة من مناطق إنتاج الذهب التي بينها سلفًا، وبحساب عمر دخول الإسلام يمكن معرفة عمر وجود لغة للتواصل بين تجار الشمال ومنتجي الذهب، حيث كيف للإسلام أن ينتشر دون وجود لغة يشترك في إجادتها أطراف عملية تجارة الذهب.

(1)-البكري، المصدر السابق، ج2، 875 – 876.

(2) - البكري، المصدر السابق، ج2، 877.

(3) - البكري، المصدر السابق، ج2، 868.

(4) - البكري، المصدر السابق، ج2، ص 883.

وبالحديث عن الأصل البربري للأسرة الحاكمة الأولى في غانة قبل سيطرة السوننك على العرش عام 800م، فكيف كان يسوس البربر رعاياهم من السوننك، وكيف ساس الملك الصنهاجي تين يروتان رعاياه من القبائل السودانية التي زادت عن عشرين قبيلة، وكيف في المقابل أدار ملوك غانة من السوننك علاقاتهم برعاياهم البربر خلال سيطرتهم على أودغست منذ أواخر القرن الرابع الهجري، وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، أيعقل أن يحدث كل ما سبق بدون كلام ولغة تفاهم وتعايش؟!

فكيف نقر أنه بالتأكيد كانت توجد قدرة لدى الطرفين البربر والسودانيين على التحدث بلغة الآخر مما مكّنهما من التواصل معاً على كافة المستويات التي بينها بما فيها المعاملات الحياتية اليومية ونشر الدين الإسلامي وتعاليمه ونقول أنه بينما كان يتعاملون في كل هذه المجالات فإنه عند ممارسة تجارة الذهب كانوا يصرون على ممارستها صامتين!!

وفي النهاية فيعتقد أن التجارة الصامتة كانت فعلياً وسيلة تجارة الذهب بين البربر وجيرانهم السودانيين قبل الإسلام بقرون ثم انتهت، لكن نشر التجار في العصر الإسلامي الحديث عنها كآلية لتجارة الذهب لإضفاء الغموض على هذه التجارة، وأصبح ترويجها جزءاً من خطة توارثها التجار لحماية الاحتكار الشمال أفريقي لتجارة الذهب من الأوروبيين المتطلعين للمشاركة فيها، وهو ما نلاحظه من أن مصادر قصة التجارة الصامتة في المصادر الأوروبية هم تجار بربر وعرب أصروا على ترويج هذه الفكرة رغم أن التجار والدعاة العرب والبربر قد خبروا كافة أرجاء السودان الغربي، وكان من بين هؤلاء التجار من اعتمد الأوروبيون عليهم في الحصول على معلومات حول تجارة الذهب، ووصفهم الرحالة والجاسوس التجاري كادامستو بالثقات، وأخذ عنهم آلية التجارة الصامتة مرغماً رغم عدم اقتناعه بوجودها⁽¹⁾.

كما أن الذهب المنتج في منطقة الغابات جرى استقبال منتجه في بلاط مالي كما يروي ابن بطوطة⁽²⁾، وشاركهم البرتغاليين تجارة الذهب في القرن التاسع الهجري/ السادس عشر الميلادي منافسين بذلك التجار الماندي. فإذا كان البعض يقبل باستخدام التجارة الصامتة بين العرب

(1) - بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز، الطبعة الثانية، جامعة قاربنوس، ليبيا، 1988م، ص 204، 216؛ طرخان، المرجع نفسه، ص 72.

(2) - تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج 4، تحقيق وتقديم عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997م، ص 268.

والبربر والسودانيين، فكان من الأجدر أن نجزم بشيوع هذا النظام التجاري كوسيلة للتجارة في الذهب بين منتجيه وتجاره في ساحل غرب أفريقيا والغابات من جهة وبين البرتغاليين من جهة أخرى.

ويمكن إرجاع استمرار اعتقاد المؤرخين المحدثين في شيوع التجارة الصامتة لأحد السببين الآتين:

- 1- أن تداول التجارة الصامتة بكثرة في المصادر والمراجع باعتبارها من مسلمات حركة تجارة الذهب؛ جعل هذه الفكرة تدخل ضمن حيز الاتجاهات، وتترسخ في العقلية حتى صار يصعب جدًا القبول بعدم وجودها. وهو ما يشير إليه باحث غربي⁽¹⁾ بأن استمرار اعتقاد الأوروبيين في وجود التجارة الصامتة يحتاج لدراسة نفسية لتفسيره.
- 2- أن يكون ذلك محاولة متعمدة من قبل المؤرخين الأوروبيين لتشويه الماضي الإسلامي في غرب أفريقيا من خلال إضفاء صورة هزلية على تجارة الذهب، التي كانت تعد أهم مورد اقتصادي بين العالم الإسلامي شمال الصحراء وجنوبها، وكان لها الكثير من التأثيرات الاقتصادية والحضارية والسياسية المهمة.

⁽¹⁾ - 73 - 66 - 31 - Ssandstrom, Lars: The Trade of Guinea. Lund, 1965, pp22 - نقلا عن هوبكنز: التاريخ

الاقتصادي لأفريقيا الغربية، ترجمة أحمد فؤاد بليغ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998م، ص132